آليات الحجاج في رباعيات الخيام

ا.د.محمد فليح الجبوري ا.د. فوزية لعيوس غازي

جامعة المثنى، كلية التربية الاساسية (العراق) - كلية التربية للعلوم الانسانية،جامعة المثنى

Kmf19682005@mu.edu.iq fouzuh@mu.edu.iq

تاريخ الإرسال: 2022/04/12	تاريخ القبول: 2022/05/12	تاريخ النشر: 2022/05/15

Abstract

The research deals with an important poetic text on the global cultural scene. This text has received the attention of critics because it raises contradictions and problems related to the contents of the text and the personality of its producer. The nature of arguments and its types in the quatrains, which were represented in the logical arguments, the fallacy of arguments, the arguments with refutation, and the argumentative links It is noticeable that the pilgrims in the quatrains took various forms, including: the logical argument, the fallacy of the argument, and the argument with the veto. The research concluded that the quatrains reveal the diversity of pilgrims represented in the logical pilgrims, the fallacies and the pilgrims with veto, and in each of them the poet presents an effective pilgrim discourse that attracts the reader to his plaza. It also revealed the fragmentation of the self into several selves that reach the point of contradiction, and these fragmented selves may have been the basis of the contradiction pointed out by critics. The research revealed that the theme of death dominated and strongly in the quatrains, as the poet dealt with it with two opposite connotations, in a way that seemed to prescribe a romantic approach to this topic.

مُلخّص البحث

يتناول البحث متنا شعريا مهما على الساحة الثقافية العالمية، فقد حظي هذا المتن باهتمام النقاد لما يثيره من تناقضات واشكالات تتعلق بمضامين المتن وبشخصية منتجه، وقد وسمنا ورقتنا البحثية هذه بعنوان (آليات الحجاج في رباعيات الخيام)، إذ تناولنا فيها موضوعات عدة

منها ماهية الرباعيات وكذلك ماهية الحجاج وانواعه في الرباعيات، والتي تمثلت في الحجاج المنطقي والحجاج المغالط والحجاج بالنقض والروابط الحجاجية والملاحظ ان الحجاج في الرباعيات اخذ اشكالا شتى منها: الحجاج المنطقي والحجاج المغالط والحجاج بالنقض. وقد توصل البحث الى أن الرباعيات تكشف عن تنوع حجاجي تمثل في الحجاج المنطقي والمغالط والحجاج بالنقض، وفي كل منهم كان الشاعر يقدم خطابا حجاجيا فاعلا يستميل القارئ لساحته. وكذلك كشف عن تشظي الذات في ذوات عدة تصل لحد التعارض، وهذه الذوات المتشظية ربما كانت هي اس التناقض الذي اشار اليه النقاد. وقد كشف البحث عن هيمنت موضوعة الموت وبقوة في الرباعيات، إذ تعامل الشاعر معها بدلالتين متضادتين، بشكل بدا وكأنه إرهاصاً للتعامل الرومانسي مع هذه الموضوعة.

الكلمات المفتاحية: الرباعيات، الخيام، الحجاج

المقدمة

تعدُّ رباعيات الخيام من الخطابات الشعرية الاشكالية لما تضمنتها من موضوعات متعارضة ومتضادة انكرها البعض وأكدها البعض الآخر، فعمر الخيام لا يتوانى عن الخوض في جزئيات الذات الانسانية وتناقضاتها، ومن خلال هذه الاشكاليات تجذب الرباعيات القارئ الى محاولة التعرف على تحولات الذات وانقسامها بين الزهد والتصوف والمجون والعبث، الأمر الذي يجعل منها خطابا انسانيا محاكيا لقوله تعالى: ((ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها)).

إن تعدد رؤى الخطاب الشعري في الرباعيات ولا سيما الرؤى المتضادة يربك المتلقي بين القبول والرفض، ومن ثم يتحتم على الخيام تضمين رباعياته حججاً يراد منها إقناع المتلقي وحمله على قبول رؤيته مهما كانت، مما يعني تعدد الآليات الحجاجية التي يؤتى بها تبعا لتعدد الرؤى المطروحة. ونحن في هذه الوقفة البحثية حاول تلمس الاليات الحجاجية في هذا النص المائز اذ جاءت وقفتنا هذه بعنوان (آليات الحجاج في رباعيات الخيام) وقد سلكنا فيها نظام المحاور اذا تناولنا موضوعات ماهية الرباعيات والاشكاليات المتعلقة بها وتشظي الذات وكذلك ماهية الحجاج وانواعه في الرباعيات، والتي تمثلت في الحجاج المنطقي والحجاج المغالط

والحجاج بالنقض والروابط الحجاجية، وقد اتبعنا المنهج التحليلي واعتمدنا على المصادر التي تتعلق بمضوعي الحجاج والرباعيات.

مفهوم الرباعيات

الرباعية هي فن شعري فارسي يسمى (الدوبيت) وتتألف بنيته من إلتقاء أربعة مصاريع تجمعها قافية واحدة تختفي في الشطر الثالث، ولكل رباعية موضوع خاص بها يختلف عما قبلها وعما بعدها، وتتألف كلمة (الدوبيت) الفارسية من مقطعين (دو) وتعني اثنين و(بيت) اي أبيات ثنائية، ويتألف وزنها العروضي من:

فعلن متفاعلن فعولن فعلن

يتكرر أربع مرات.

ويذكر الدكتور كامل الشبيبي أن هذا الوزن العروضي يلبي حاجة الشعراء في التعبير عن مشاعرهم وشؤون حياتهم اليومية[1]؛ لسهولة التحول الموضوعي من رباعية الى أخرى، مع ثبات الوزن العروضي.

ترجمة الرباعيات

تُرجمت الرباعيات الى الانكليزية في العام 1859، وعلى الرغم من وجود ترجمات سابقة منذ العام 1818 ألا ان ترجمة فيتز جيرالد قد نالت شهرة واسعة لدرجة انه لُقب (بعمر الخيام الغربي)(2) ثم توالت ترجمة الرباعيات الى لغات أوربية مختلفة مثل اللغة الفرنسية والالمانية والنمساوية، ونال صاحبها شهرة واسعة. ويذكر أحد الباحثين ان المكتبات الانكليزية في مطلع القرن العشرين كانت تضم مئة وثلاثة وخمسين كتاباً حول الرباعيات(3)، وفي الضفة الاخرى تأخر العرب في نقلها للعربية فكانت أول ترجماتها عن الترجمة الانكليزية بوساطة البستاني في العام 1912. وتبعه الشاعر احمد رامي الذي ترجم الرباعيات عن الفارسية التي كانت يتقنها وقد اكتسبت ترجمته أهمية كبيرة في الادب العربي، فأعيد طبعها أكثر من مرة حيث كانت الاولى في العام 1924 وجاءت الثانية 1931.(4) وقد أعجب الادباء العرب بالرباعيات فأهتموا بترجمتها الى العربية امثال المنفلوطي والزهاوي واحمد صافي النجفي، وبذلك تصاعد عدد مرات

ترجمة الرباعيات الى العربية ليصل الى أكثر من ثلاثين ترجمة، الا ان الآراء تضاربت حول عدد الرباعيات، اذ ضمت أقدم نسخه حوالي مئة وثمان وخمسون رباعية فقط، ويتباين العدد في النسخ الاخرى ما بين ثلاثمئة وتسع واربعين وبين ستمئة وأربع رباعية (5)، كما عثر على نسخ أخرى جمعت الف ومئتي رباعية. وقد شكك الروسي شكلوفسكي بكل هذه الارقام من الرباعيات، وهو يرجئ ذلك الى تداخل شعر شعراء آخرين مع شعر الخيام بسبب التشابه، ويذكر أهم الشعراء الذين نسب شعرهم للخيام ومنهم فريد الدين العطار، وحافظ ابراهيم وجلال الدين الرومي والفردوسي وسميت هذه الرباعيات المنسوبة (بالرباعيات المشردة)(6) ويقلص أحد الدارسين من عدد الرباعيات المنسوبة للخيام فيقول :" الرباعيات التي لاريب ولا نزاع في نسبتها... [للخيام] تنيف عن الإحدى عشر"(7) فقط. وفي وسط كل هذه الآراء المتضاربة حول عدد رباعيات الخيام فأن كل ما قيل إنما هو جزء من اجتهادات الباحثين ولايقين فيما ذهبوا اليه؛ لكون أن معظم هذه الدراسات لم تعتمد النسخة الاصلية للرباعيات، والتي مازالت مجهولة حتى يومنا هذا، مما يعني صعوبة أثبات رقم محدد لها.

إشكالية الذوات والثنائيات المتضادة

تعرّف ذات الانسان على أنها انعكاس لكل ما بداخله وتمثل وجهته في الحياة وقدراته وطموحاته[8]، فالذات كاشفة عن الفرد وسلوكه ورؤاه تجاه ما يحيط به. وما يهمنا هنا أن الرباعيات لم تأت برؤية واحدة، بل تباينت الرؤى في مضامينها لدرجة التناقض والتعارض، فتراوحت ما بين الايمان والكفر والزهد والمجون والتشاؤم والتفاؤل وحب الناس ومجانبتهم، وتزخر رباعيات الخيام بثيمات موضوعية متنوعة، ومنها ثيمة الموت والخمرة وهما من أهم ما تكرر فيها، وقد يرتبط الموضوعان معاً. وفي المقابل أختلف الدارسون في تفسير هذا التناقض في الرباعيات، وعَدّه بعضهم جزءاً من مشكلة ما يُنسب الى الشاعر، ولا ينكر آخرون تضاد رؤى الخيام وتعارضها ويعدون ذلك جزءاً من عبثيته، فيما أبدى بعض الدارسين تزمتاً كبيراً في تفسير هذه الثنائيات المتضادة في الرباعيات بحجة ان الخيام "براءٌ منها"[9]، ويضع هؤلاء الشاعر بإطار ضيق لا يخرج عن كونه عالماً وعابداً وزاهداً، وأن شعره لا يتعدىِ حدود هذه الموضوعات.

ومن هنا فإن البحث يرفض تفسير بعض المقاربات النقدية للرباعيات التي تذهب الى ان ذلك كان جزءاً من الثقافة الصوفية التي أكتسبها الخيام؛ ومدعاة ذلك برأينا أن الفكرة في الرباعيات لم تأخذ بعداً رمزيا كما هو وارد في الشعر الصوفي عادةً، انما جسدت هذه الافكار تمثيلاً وجودياً لإبراز حياة المجون واللهو كون الموت هو المصير الحتمي للحياة.

وفي ضوء ما تقدم يمكن للبحث تفسير التناقض والتعارض المتضمن في الرباعيات على أن الشاعر قال رباعياته في مراحل زمنية متفاوتة من عمره، وواضح أن لكل مرحلة عمرية لها ما يناسبها من طبيعة العيش، او أن هذه الثنائيات المتعارضة في الرباعيات لا تعكس تجربة واقعية معاشة، إنما تجارب متخيلة أراد بها الشاعر تصوير رؤى متنوعة من حياة الانسان الذي يبقى في النهاية " تركيبة غريبة ومعقدة تجمع في ذاتها تناقضات عدة ومشاعر مختلفة، وتتأرجح النفس الانسانية بين العقلانية والعاطفية". (10)

تشظي الذات

تتشظى الذات في الرباعيات على ذوات متعددة، فهي لا تشي عن ذات واحدة، فالقارئ يشعر إنه أمام ذوات مختلفة ومتنافرة، ويمكن أن نطلق عليها الذوات السبعة وتتمثل بـ:

1- ذات عابدة
2- ذات زاهدة
3- ذات قدرية
4- ذات عابثة
5- ذات ماجنة
6- ذات متشائمة
7- ذات متفائلة

وقد شكلت هذه الذوات مضموناً هاماً في رباعيات الخيام، وكان الشاعر في كل واحدة منها يقدم رؤية يجتهد في الحجاج عنها لإقناع المتلقي بفكرته، لينتقل بعدها الى رؤية مضادة

ومخالفة، وهو لا يتوانى في تسخير طاقته الابداعية للحجاج عنها ايضاً، ومحاولة إقناع المتلقي بها. ومن ذلك على سبيل المثال قوله :

أحسن إلى الاعداء والاصدقاء

فإنما إنس القلوب الصفاء

وأغفر لأصحابك زلاتهم

وسامح الأعداء تمحُ العِداء[11]

يدعو الشاعر الى فكرة التسامح والمغفرة لمن أخطأ، وإن كان من الاعداء، فالمهم إثارة الحب بين الجميع. وفي رباعية أخرى يقول:

إذا بلغت المجدَ قالوا زنيم

وإن لزمت الدار قالوا لئيم

فجانب الناس ولا تلتمس

معرفة تورث حمل الهموم[12]

والفكرة هنا مختلفة، وتتعارض مع ما طرحته الرباعية السابقة إذ تبدو متشائمة، تدعو لمجانبة الناس والشك بنواياهم.

الحجاج في الرباعيات

يبغي المتكلم من الحجاج إقناع سامعه بفكرةٍ ما، فالحجاج " فعالية تداولية خطابية جدلية، وهو تقديم مجموعة من الحجج التي تخدم نتيجة معينة ".[13] وتتضمن المقاربة الحجاجية طروحات حجاجية باستعمال الاساليب والآليات الحجاجية، ليجهد المتكلم في التأثير على الآخر في محاولة لأقناعه. ويحمل الحجاج " آثار المخاطَبة، وهو يفترض وجود ذات مخاطِبة...ووجود (ذات) مخاطبة"[14]. وبما أن غاية الحجاج هي التأثير في النفوس للقبول والاقناع فيفترض ذلك " وجود تفاعل وتماس بينهما، فكأنما النفس بالحجاج تترك أثراً في غيرها من النفوس فتستجيب بالقبول".[15] وقد ميز بيرلمان الحجاج بخمسة ملامح هي :

1- ان يتوجه الى مستمع.

2- ان يعبر عنه بلغة طبيعية.

3- لا تعدو مسمياته أن تكون احتمالية.

4- لا يفتقر تقدمه الى ضرورة منطقية.

5- نتائجه غير ملزمة.[16]

لم يقدم الخيام في الكثير من رباعياته أموراً متفقاً عليها، بل أثار في الكثير منها إشكاليات مختلفة، وعلى الرغم من ان الكثير منها ليس غريباً على الثقافة العربية كان بحاجة الى ان يحاجج ليدعو المخاطب للقبول. فالمخاطب بالنسبة للشاعر(بنية ممنهجة) يعمل الأخير على تأطير كلامه " ويجعله ملائماً لظروفه الواردة فيها".[17]

كما يقدم الخيام استدلالات لتأكيد أحقية آرائه، وتنوعت هذه الاستدلالات في الرباعيات، فكان بعضها يعتمد على سلطة دينية أو اجتماعية أو قيم اخلاقية، فالرباعيات تخلو من المنطق والاستدلال البرهاني، واعتمد الخيام بدلاً عنه وبشكل كبير على الخيال والتأثير العاطفي.

وقد تميزت الرباعيات بوصفها نصاً حجاجياً بسمات فنية [18] منها:

1- ايجاز الفكرة وتحدديها.

2- وضوح اللغة وابتعادها عن التعقيد اللغوي.

3- الابتعاد عن الجدل الفلسفي.

4- التركيز على الجانب العاطفي والخيال.

ومن خلال الافكار المتعارضة والمتضادة التي زخرت بها الرباعيات، يتضح أن الحجاج فيها أخذ اشكالا شتى، تبعاً للرؤية التي تتبناها الذات المحاجة وتتمثل في الحجاج منطقي والحجاج مغالط والحجاج بالنقض.

1- **الحجاج المنطقي:** ليس المقصود بالمنطقي، هو المنطق الرياضي او الارسطي لان " الحجاج هو العمل الذي تقوم به في المنطق الفطري".[19] فالمنطقي نعني به ما كان قائماً على مفاهيم وقيم صحيحة تتناسب والقيم الدينية والمجتمع والناس، وهو يدعو السامع الى الأخذ بهذه القيم والتمسك بها، كونها ستعود عليه بكل ما هو خير. ويظهر هذا النوع من الرباعيات أشبه بأبيات الحكمة ومن ذلك مثلاً:

الـدرعُ لا تمنعُ سهمَ الأجل

والـمالُ لا يـدفعهُ إن نزل

وكـل ما فـي عيشنا زائل

لا شيء يبقى غير طيب العمل[20]

يستند الفعل الحجاجي على مبادئ وقيم دينية مفادها زوال كل ما في الحياة ولن يبقى سوى ذكر العمل الحسن. فلا مال ولا دروع يمكن أن تؤجل القدر اذا حلَّ.

وفي رباعية اخرى يعتمد الشاعر على معنى ديني أيضاً فيقدمه للسامع وكأنه جزء من تجربة شخصية عاشها الشاعر، زيادة منه في تفعيل الحجاج وإقناع السامع:

ولا تحسـبوا أني أخاف الزمان

او أرهب الموت أذا الموت حان

المـوت حق لستُ أخشى الردى

وإنما أخـشى فـوات الأوان[21]

أذ لا يبدو الموت مخيفاً للشاعر، كونه حقاً على الانسان وهو مفهوم إسلامي مهم، وأن ما يخشاه الشاعر انقضاء حياته باللهو من غير الاستعداد لحياة الآخرة الابدية. ويتكرر المعنى ذاته في رباعية أخرى:

دنياك ساعات سراع الزوال

وانما العقبى خلـود المال

فهـل تبيـع الخلد يا غـافلاً

وتشتري دنيا المنى والضلال[22]

ومن جديد يستنبط الشاعر حجاجه المنطقي اعتماداً على مفاهيم دينية، تزيد من احتمالية قبول القارئ لها، او اقتناعه بها مثل قوله:

الله يـدري كـل ما تضمرُ

يعلم ما تخفي وما تظهرُ

وأن خدعت الناس لم تستطع

خداع من يطوي ومن ينشرُ[23]

والى جانب ذلك يعتمد الشاعر أيضاً على حقائق معروفة، بغية إقناع السامع بفكرته، ومنها قوله:

مصباح قلبي يستمد الضياء

من طلعة الغيد ذوات البهاء

لكنني مثل الفراش الذي

يسعى الى النور وفيه الفناء[24]

فالشاعر لا يريد الاحتراق بنار الحسان، وكأنه الفراش الذي يجذبه نور اللهب فيفنى فيه.

وفي تأمل حجاجي يمس قشور الفلسفة مساً خفيفاً يريد به الشاعر إقناع سامعه بحقيقة الوجود الانساني قوله :

كنا، قصرنا قطرة في عباب

عشنا، وعدنا ذرة في التراب

جئنا إلى الارض ورحنا كما

دب عليها النمل حيناً وغاب[25]

وجودنا مثل دبيب النمل لا يترك أثراً على الارض التي نحن منها خلقنا وإليها نعود. فالأفكار التي يثيرها الشاعر في الحجاج المنطقي هي أشبه بالحقائق المستمدة من مفاهيم إنسانية ودينة مختلفة يصوغها الشاعر برباعياته بقصد إقناع السامع بها.

2- **الحجاج المغالط:** وهو حجاج مبني على مفاهيم خاطئة ومخادعة، فالمغالطة " خدعة الاستدلال التي قد يستخدمها المؤلف أثناء محاولته إقناعك لقبول الاستنتاج"[26] وهي أيضاً " استدلال فاسد او غير صحيح يبدو وكأنه صحيح لأنه مقنع سيكولوجيا، لا منطقياً على الرغم مما به من غلط مقصود".[27] فهي حيلة يتبعها المؤلف لمراوغة

المتلقي وخداعة للتأثير عليه عاطفياً، وقديماً أشار أفلاطون الى أهمية العواطف في الحجاج فجعلها لـ " دغدغة عواطف الجمهور ورغباته الأشد إقناعاً من أي احتكام الى العقل، ليس بالحق وحده تكسب جدلاً، او تظهر خصماً او تقنع الناس"[28] ويبيح المتكلم المغالط لنفسه استخدام كل ما يتاح من أجل أرباك المتلقي " والضغط عليه لتعطيل عملية التفكير عنده وتشتيت انتباهه"[29]، فأسلوب التهديد والترغيب والشفقة من الاساليب التي يعتمدها المغالط، في التأثير على المتلقي ؛ لكسب قبوله.

يرد الحجاج المغالط بكثرة في الرباعيات، وكثيرا ما كان الشاعر يخفي الحقائق، ويظهر بدلاً منها قيماً مضللة قد تكون " مقنعة سيكولوجيا لا منطقياً لمخالفتها قواعد المنطق" [30]. كمحاولة منه لتبرير المعنى المغلوط الذي يريده في رباعيته، ومن ذلك قوله :

أشرب فمثواك التراب المهيلِ

بلا حبيب مؤنس او خليلِ

وأنشق عبير العشق في فجره

فليس يزهو الورد بعد الذبولِ[31]

يتخذ الشاعر من موت الانسان وفنائه تحت التراب وحيداً حجة لأن يعيش حياة العبث واللهو بالشراب والعشق، وهذه حقيقة أريد بها باطلا، وهو من الحجج المغالطة.

ويتكرر المعنى ذاته والدعوة ذاتها، فالعمر مثل شجرة تساقطت أوراقها، فيحاجج السامع بالتلذذ بمناعم الحياة، قبل إدراك الموت:

أطفئ لظى القلب ببرد الشراب

فإنما الايام مثل السحاب

وعيشنا طيف خيال فنل

حظك منه قبل فوت الشباب[32]

ومنه أيضا:

قالوا أمتنع عن شرب بنت الكروم

فـأنها تـورث نـار الجحيم

ولـذتي في شـربها سـاعة

تعـدل في عيـني جنات النعيم [33]

يهدف الشاعر الى إثارة عواطف مستمعيه، بفهم تعلقه بالخمرة ومع علمه بأنها قد تورث نار جهنم، إلا أنه يكشف عن مقدار حبه لها فساعة لذة في شربها تعادل جنان الخلد؛ ويعلل الشاعر سر تعلقه بالخمرة على أنه ليس رغبة بالسكر والنشوة، وليس تمرداً على آداب المجتمع، أنما هي رغبة من الشاعر لأطلاق ذاته من عقالها وتحررها:

لم أشرب الخمرَ ابتغاء الطربِ

ولا دعتـني قلـة في الادبِ

لكـن إحساسي نزاعا الى

إطلاق نفسي كان كل السببِ[34]

ويؤشر البحث أن أغلب الرباعيات التي تتضمن الحجاج المغالط تتعلق بموضوعة الخمرة، ففي كل مرة يرد الشاعر الى أثارة حقيقة مغلوطة لتبرير تناولها، وهو الأكثر دراية بتحريمها ورفض المجتمع لشاربها فيقول:

سارع الى اللذات قبل المنونِ

فالعمر يطويه مرور السنينِ

ولسـت كالأشجار إن قلمتَ

فروعها عادت وطاب الغصونِ[35]

وتطرح ذات الشاعر التشاؤمية معناً مغالطاً، بالابتعاد عن الناس ومعاشرتهم بريبة وسوء ظن، ومن ذلك قوله :

إن الـذي تأنـس فيـه الـوفاء

لا يحـفظ الـود وعهد الاخاء

فعاشر الناس على ريبة

منهم ولا تكثر من الاصدقاء[36]

ويتكرر المعنى ذاته في رباعية أخرى:

وأسعد الخلق الذي يرزق

وبابه دون الورى مغلق

لا سيد فيهم ولا خادم

لهم ولكن وداع مطلق[37]

فالسعادة والرزق لا تكونان إلا بمجانبة الناس، وإغلاق الباب دونهم، فذات الشاعر التشاؤمية تدعوه لفكرة نبذ المجتمع ويدعو لعدم الاختلاط به، وهو هنا يتبنى معطاً صوفيا هو العزلة، فالحجاج هنا هو حجاج مغالط لا ينتمي الى القيم العامة التي يتفق عليها جل الناس، والشاعر نجده يوظف سلطة العاطفة للتأثير على القارئ وجدانياً. وفي رباعية أخرى يخاطب الشاعر سامعه بـ (يا طالب الدنيا) ذاك الذي يبحث عن رزقه بتجارة او عمل، ويدعوه الى ترك هذا اللهاث، والانصراف بشرب الخمرة؛ لأنها تبعث في النفس النشوة، فتفك أسرها من التفكير والانشغال بربح او خسارة:

يا طالب الدنيا وقيت العثارِ

دع أمل الربح وخوف الخسارِ

وأشرب عتيق الخمر فهي التيِ

تفك عن نفسك قيد الأسارِ[38]

3- الحجاج بالنقض (الموت المقدس والمدنس)

يرد الموت كثيراً في رباعيات الخيام للحد الذي شكل ظاهرة تلفت النظر، وقد تعامل الشاعر مع الموت بدلالتين مختلفتين شكلتا مثالاً واضحاً على ازدواجية التعامل مع الموضوعات والتي تبرز بقوة في الرباعيات، فتارة يشحن الشاعر دلالة الموت بمحمولات ترهيب وتخويف، بالتذكير بالعقاب بوصفه نتيجة لإعمال الانسان وضلاله بالدنيا، وتارة أخرى يكون للموت دلالة مختلفة

بوصفه نهاية حتمية للحياة فالأولى أن يعيش حياته كما يريد ويشاء. ومن ذلك قوله في احد الرباعيات:

دنياك ساعات سراع الزوال

وإنما العقبى خلود المال

فهل تبيع الخلد يا غافلاً

وتشتري دنيا المنى والضلال[39]

تشي الرباعية عن مفهوم ديني وهو أن الحياة الدنيا مهما طالت فهي سريعة الزوال، فالحياة الحقة هي حياة ما بعد الموت. وفي رباعية أخرى ينقض الشاعر معناه السابق، ليؤسس لمعنى آخر ناسخ له، منطلقاً من الحقيقة ذاتها، باعتبار ان الموت هو المصير الحتمي للإنسان، فلماذا نشغل أنفسنا بالهموم والاحزان، والشاعر الخيام يدعو المتلقي إلى أن يستغل حياته بالشراب والطرب، وأن لا يحرم نفسه من الملذات:

وإنما بالموت كل رهينِ

فاطرب فما انت من الخالدينِ

واشرب ولا تحمل أسى فادحاً

وخل حمل الهم للاحقينِ[40]

وتصبح القصور الخالية من أهلها، دلالة أخرى للموت فبعد ان شيدها أصحابها بالعز والثراء، ها هو الغراب اليوم ينعق بها، سيميائية عن الخراب والدمار، فيقول:

تلك القصور الشاهقات البناء

منازل العز ومجلى السناء

قد تعب اليوم على رسمها

يصيح اين المجد اين الثراء[41]

وفي كثير من الرباعيات يأتي الموت متعلقاً بالخمرة، وطيب شرابها، فهي تبعث الحياة في جسد الميت من شدة لذتها.

يا ساقي الخمر أفق هاتها

ثم أسقني سائل ياقوتها

فإنها تبعث من روحها

نفسي وتحيي ميت لذاتها[42]

ومما يلفت النظر أن ارتباط الموت بالخمرة شكل ظاهرة أخرى في الرباعيات، وفسر الدارسون علة ذلك على أنه جزءٌ من الثقافة الصوفية التي أكتسبها الخيام من مصاحبته لشيوخ المتصوفة، ورصد أحد الباحثين عن أمور مختلفة في الرباعيات تتفق وأفكار المتصوفة، منها :

" 1- انه لا يرى لهذا العالم قيمة. 2- أنه يتخذ الحب والخمرة وسيلة الى التعبير عن تطلعاته 3- ان رباعياته مملؤة بالرمز"[43]. وينتهي الباحث الى القول" ربما لا يكون عمر الخيام صوفياً ولكن شعره شعر صوفي"[44]. والمتأمل في الرباعيات يجد ان ما ذهب اليه الباحث لم يكن دقيقاً، أذ لا تكشف الرباعيات عن أي أثر صوفي، وأن الخمرة في شعر الخيام لم تكن رمزاً صوفياً، ولو كانت كذلك لما أختلف الدارسون في صحة نسبة رباعيات الخمرة له، بحجة كون الخيام عابداً وزاهداً.

ويمكن لنا ان نلاحظ بأن الرباعيات تخلو من المصطلحات الصوفية او الالتواءات اللغوية التي عُرفت بها لغتهم الشعرية، فالخمرة في الرباعيات تمثيل وجودي للشاعر، أراد بها البوح عن تجربة خيالية او حقيقية.[45] ولم تكن رمزاً للتوحيد مع الذات الالهية؛ لأن الشاعر كان يريد بها خمرة حقيقية للسكر والنشوة، والانشغال بها بعيداً عن محيطه. الامر الذي يجعلها تختلف عن خمرة المتصوفة فهي خمرة " تدير الرأس وتثقل الحواس...بل هي... توقظ النفس وتنعش الوجدان وتجلو عين البصيرة"[46] وعبر عن ذلك بقوله :

عيشي من غير الطلى مستحيل

فإنها تشفي فؤادي العليل

ما أعذب الساقي إذا قال لي

تناول الكأس ورأسي يميل[47]

الروابط الحجاجية

تعرف الروابط الحجاجية بأنها "وحدة لغوية تربط بين ملفوظين او أكثر بغية الوصول إلى نتيجة محددة"[48]. وتعمل هذه الروابط على أتصال السابق باللاحق من الكلام ؛ لتقود في النهاية الى النتيجة منه. وللروابط أهميتها ؛كونها تمنح الخطاب طابعاً حجاجياً وعداها تتحول اللغة الى طبيعة إعلامية لا تتعداها.[49] ويذكر رودولف كيليكيون "يمكن اعتبار كل خطاب ذا مدى تأثيري تضمنه أدوات لغوية تساعد المتقبل على اكتشاف ما يعتبره الباحث واقعاً صحيحاً ". [50] ويشترط وجود الروابط الحجاجية في الخطاب لحمل المتلقي على الاقناع. وينقل عن كارون أثر الروابط في الخطاب كونها " لا تصنع القضايا ولا تربط بينها، ولكنها تجمع وتنسق بين الاحداث القولية".[51]

وتساعد الروابط الحجاجية على " تحديد المسار التوجيهي"[52] للمعنى في القول، فضلاً عن إن لها خصائص كثيرة، تجعل وجودها في الخطاب ضرورة، ومنها:

1- تضم المعتقدات والافكار التي يشترك بها الافراد داخل المجموعات.

2- تصلح لسياقات متنوعة.

3- تربط بين المسلمات الحجاجية.

4- يبطل المبدأ الحجاجي في الرجوع الى السياق الذي ورد فيه.

وردت الروابط الحجاجية في الرباعيات بصورة لافتة ومنها (بل، لكن، انما، لو، حتى، أن، بما، ألا، لاسيما) وغيرها كثير، ويلاحظ المتأمل أثرها الاقناعي في الخطاب الحجاجي.

وسوف يتناول البحث نماذج منها، مثل:

1- الفاء: رابط حجاجي يفيد ترتيب الحجج، وتربط السبب بالنتيجة،ولها أهمية " بحصر المعنى وتحديد الفكرة...مما يسمح بإقامة بنية حجاجية مركبة من علاقات حجاجية بين حجج والنتائج تقوم أساساً على التتابع".[53] وقد وردت الفاء بوصفها رابطا حجاجياً أكثر من اثنتين وثمانين مرة في الرباعيات، فكان لها أثر كبير في حجاج الشاعر، ومن ذلك قوله:

تناثرت أيام هذا العمر

تناثر الاوراق حول الشجر

فانعم من الدنيا بلذاتها

من قبل ان تسقيك كف القدر[54]

ترد الفاء في هذا الموضع لتخرج الخطاب من صيغة إبلاغيه الى حجاجية وتأكيدية الى جانب المعاني الاخرى للفاء، والتي أفاد منها الشاعر بكثرة في رباعياته.

2- أنما: وتفيد قصر الموصوف على الصفة، وقد تكرر ورود (إنما) في الرباعيات في مواضع عديدة منها:

هات اسقني كأس الطلى السلسل

وغني كناً مع البلبل

فإنما الابريق في صبه

يحكي خرير الماء في الجدول[55]

تمنح (أنما) الخطاب طاقة حجاجية، وهي أيضاً برأي عبد القاهر الجرجاني لا تأتي في موضع " لمن يجهل...ويدفع صحّته"[56] وتكن للتنبيه.

3- لو: رابط حجاجي تربط بين السبب والنتيجة، فالجملة بعد (لو) تؤكد ما قبلها، وتزيد من حجتها:

تملك الناس الهوى والغرور

وفتنة العبد وسكنى القصور

ولو تزال الحجب بانت لهم

زخارف الدنيا وعقبى الأمور[57]

وجاء عمل (لو) هنا لتحديد المقصد " فلا يضيع بين النتائج التي يؤدي اليها القول الحجة فلا تتعدد... المسالك التأويلية...فيعمد العامل الحجاجي إلى حصرها حتى تقود الى نتيجة واحدة" [58]

4- حتى: يتوسط هذا العامل الحجاجي دليلين وتؤكد أحدهما " الذي يخدم في الاخير النتيجة التي يقصدها المتكلم"[59]

ولأجل ان تكون حتى عاملاُ حجاجياً لابد من توافر شروطاً ثلاثة:

1- الكلام الذي يأتي قبلها يخدم نتيجة معينة.

2- كلا الحجتان السابقة واللاحقة يخدمان نتيجة واحدة.

3- الحجة اللاحقة لـ (حتى) تضيف حجة جديدة. [60]

ومن ذلك قول الشاعر:

لم تفتح الأنفس باب الغيوب

حتى ترى كيف تسام القلوب

ما أتعس القلب الذي لم يكد

يلتام حتى انكأته الخطوب[61]

4- إن: رابط حجاجي يفيد التأكيد، وإن " من الادوات الفعالة حجاجياً لم (كذا) يوفره هذا النوع من الرابط من إثبات وتأكيد للأمور والقضايا والحجج"[62]

سمعت في حلمي صوتاً أهاب

ما فتق النوم كمام الشباب

أفق فإن النوم صنو الردى

وأشرب فمثواك فراش التراب[63]

فإن) بوصفها رابطا حجاجياً تنتقل بالخطاب" من الابلاغية الى الحجاجية"[64] كما أنها تبرهن على التوجيه الحجاجي، وحجاجية اللغة. [65]

5- لكن : ويأتي استعمال (لكن) في الخطاب الحجاجي للحفاظ على النتيجة التي تكون متناقضة للنتيجة السابقة، فالحجة الثانية تكون أقوى من الأولى، وبما ان (لكن) تفيد الاستدراك فالمتكلم يستدرك النفي بالإيجاب[66]

واسعد الخلق الذي يرزق

وبابه دون الورى مغلق

لا سيد فيهم ولا خادم

لهم ولكن (وادع)(كذا) مطلق[67]

أسهمت هذه الروابط الحجاجية وغيرها من الرباعيات في " تمثيل البنية المنطقية المتحكمة في بناء النصوص الحجاجية"[68]، وجاء توظيف هذه الروابط بكثرة في الرباعيات، لما تناولته من مضامين متناقضة ومتنافرة، كما أنها تحمل قوة إقناعيه للتأثير على السامع، وإحداث خلل في أفكاره المارة، وتعويضها بما يريده المخاطب، لذا كان ورود هذه الروابط مهما في تسهيل مهمة الاقناع والتأثير.

الخاتمة

توصل البحث الى نتائج يمكن اجمالها بالاتي:

1- أن الرباعيات تكشف عن تنوع حجاجي تمثل في الحجاج المنطقي والمغالط والحجاج بالنقض، وفي كل منها كان الشاعر يقدم خطابا حجاجياً يغلب ما يتبناه.
2- هيمنة الحجاج المغالط على نص الرباعيات بشكل لافت دون الانواع الاخرى، وربما ان الامر يرتبط بشخصية الخيام ومرجعياته الثقافية، و ربما هو الامر نفسه الذي كان سببا في وسم النص والخيام بوصفهما اشكالية بحد ذاتها.
3- تكشف الرباعيات عن تشظي الذات في ذوات عدة تصل لحد التعارض، وهذه الذوات المتشظية ربما كانت هي اس التناقض الذي اشار اليه النقاد والتي وصفت به هذه الرباعيات.

4- هيمنت موضوعة الموت وبقوة على الرباعيات، إذ تعامل الشاعر معها بدلالتين متضادتين، بشكل بدا وكأنه إرهاصاً للتعامل الرومانسي مع هذه الموضوعة.

5- تُطرح موضوعة الموت وبقوة في الرباعيات، إذ تعامل الشاعر معها بدلالتين متضادتين، بشكل بدا وكأنه إرهاصاً للتعامل الرومانسي مع هذه الموضوعة.

6- إن ارتباط موضوعة الخمرة مع الموت لم يكن تمثيلاً صوفياً مثلما ذهب كثير من الباحثين، أنما هو تجسيد واقعي، لأن مراد الشاعر من الخمرة السكر والترنح الجسدي.

7- يرتكز الخطاب الحجاجي في الرباعيات على الروابط الحجاجية عدة وظفها الشاعر لتحديد المسار التوجيهي للمعنى المراد.

الهوامش

(1) ينظر: ديوان الدوبيت في الشعر العربي (في عشرة قرون) د. كامل مصطفى الشيبي، دار الثقافة،بيروت، 1972، 34-35.

([2]) رباعيات عمر الخيام المصورة، معربة نظما بقلم، وديع البستاني، المكتبة الشرقية، طبع،ونشر،توزيع، د.ت، 24

([3]) المصدر نفسه،26.

([4]) الاعمال الشعرية الكاملة،احمد رامي،مع رباعيات الخيام، دار العودة،بيروت، ط2010.

([5])ينظر: رباعيات عمر الخيام المصورة،21.

([6]) ينظر: المصدر نفسه، 21.

([7]) المصدر نفسه،22.

(8) ينظر: معرفة الذات، عود الند،عدلي الهواري، مجلة ثقافية فصلية، ع80، 2، 2013،انترنيت.

([9]) رباعيات الخيام المصورة،16.

([10]) معرفة الذات عود الند، عدلي الهواري، مجلة ثقافية فصلية، ع8، 2، 2013،انترنيت.

([11]) الرباعيات (الاعمال الشعرية الكاملة لأحمد رامي)،310.

(12) الرباعيات،343.

([13]) حوار حول الحجاج، ابو بكر العزاوي،الاحمدية للنشر،الدار البيضاء،المغرب ط1، 2010،9.

([14])الاستعاره والنص الفلسفي، توفيق فائزي،الكتاب الجديد المتحدة ،292.

([15])م.ن، 293.

([16])ينظر: مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة،محمد سالم محمد الامين، عالم الفكر، مج/28،ع/3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2000، 175. ينظر: الحجاج مفهومة ومجالاته ج1، 879.

([17]) مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة،

([18]) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، 233.

([19]) الاستعارة والنص الفلسفي ،302.

([20])الرباعيات،314.

([21]) الرباعيات،321.

([22]) الرباعيات،323.

([23]) الرباعيات،314.

([24]) الرباعيات،316.

([25])الرباعيات،320.

([26]) توجيه الاسئلة الصحيحة دليل التفكير الناقد، إم نيل يراون وستيورت إم كيلي، ت:مكتبة جرير،المملكة العربية السعودية 2014، 74.

([27]) اللسانيات والحجاج المغالط نحو مقاربة لسانية وظيفية،حافظ اسماعيل عليوي، ومحمد اسيداه، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ، 272.

([28]) عن المغالطات المنطقية، عادل مصطفى، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة 2007.

([29])أستراتيجية المغالطات في حوارات الاذكياء (نماذج من كتاب الاذكياء لابن الجوزي)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية ع5 افريل 2017، 195.

([30]) المغالطة الحجاجية في الخطاب الاشهاري، الاشهار السمعي البصري، نموذجا، فهيمة السنوسي، صباح حيدب، بحث ماجستير،جامعة أكلي محند أولحاج،الجزائر،2017-2018،10.

([31])الرباعيات،308.

([32])الرباعيات،310.

([33])الرباعيات،339-340.

([34])الرباعيات،312.

([35])الرباعيات،339.

([36])الرباعيات،315.

([37])الرباعيات،316.

([38])الرباعيات،326.

([39])الرباعيات،323.

([40])الرباعيات،315.

([41])الرباعيات،331.

([42])الرباعيات،320.

(43) الادب العربي والايرانيون (من بداية الفتح الاسلامي الى سقوط بغداد) عبد الغني ايرداني زاده، نصر الله الشاملي، طهران، 1386 هـ،53.

([44])م.ن،53.

([45]) يوازن عزيز السيد جاسم بين المعري والخيام فيقول: " تعرض كلاهما للزندقة ولهما وجهات نظر متشابهة... واذا ماأختلفتا في شيء ففي الخمرة إذ كان الخيام معاقراً لها في حين كان المعري متنكراً " الالتزام والتصوف في شعر عبد الوهاب البياتي،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990،206.

(46)الشعر الصوفي،حتى افول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، عدنان حسين العوادي،دار الرشيد، 1979،265.

(47) الرباعيات،338.

([48]) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر حباشة، صفحات للدراسات والنشر، 2008 م،27.

([49])ينظر:العوامل الحجاجية في اللغة العربية،د.عز الدين الناجح،مكتبة علا الدين للنشر والتوزيع،105،2011.

([50]) م.ن،16.

([51])م.ن.25.

([52])الروابط الحجاجية في شعر أمل د. دنقل، زينب نمر،رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي،كلية الاداب واللغات،الجزائري،31.

([53]) دور الروابط الحجاجية واثرها في الانسجام النصي (دراسة تطبيقية) في سورة الاعراف، د.ابتسام صغيور،جامعة المسيلة، الجزائر.(أنترنيت).

([54])الرباعيات،323.

([55])الرباعيات،317.

([56]) دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، د.ت. بيروت، عن العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د.عز الدين الناجح، 106.

([57])الرباعيات،315.

([58])العوامل الحجاجية في اللغة العربية،35.

([59])دور الروابط واثرها في الانسجام النصي،95.

([60])ينظر: م،ن، 9.

(61)الرباعيات،309.

([62]) دور الروابط واثرها في الانسجام النصي، 12.

(63)الرباعيات، 304.

([64])العوامل الحجاجية في اللغة العربية،35.

([65])ينظر: دور الروابط واثرها في الانسجام النصي، 35.

([66])ينظر:م.ن.

(67)الرباعيات،315-316.

([68]) اساليب الحجاج، مقومات الحجاج اللغوي والبلاغي، د. ت. بحث انترنيت.

allo School.com

المصادر

1- ابو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الاحمدية للنشر،الدار البيضاء، المغرب، ط1،2010م.

2- احمد رامي، الاعمال الشعرية الكاملة،مع رباعيات الخيام، دار العودة، بيروت، م2010.

3- توفيق فائزي، الاستعارة والنص الفلسفي ، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1، 2016م.

4- حافظ اسماعيلي علوي، الحجاج ومفهومه ومجالاته، ج1، مجموعة من المؤلفين،اشراف، عالم الكتب الحديث، لبنان،ط1،2010م.

5- صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، 2008 م

6- عادل مصطفى، عن المغالطات المنطقية، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2007م.

7- عبد الغني ايرواني زاده، الادب العربي والايرانيون (من بداية الفتح الاسلامي الى سقوط بغداد)، نصر الله شاملي، طهران، 1386ه.

8- عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الرشيد، 1979م.

9- عزالدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، 2011م.

10- عزيز السيد جاسم، الالتزام والتصوف في شعر عبدالوهاب البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1990م.

11- كامل مصطفى الشيبي، ديوان الدوبيت في الشعر العربي (في عشرة قرون)، دار الثقافة،بيروت، 1972م.

12- وديع البستاني، رباعيات عمر الخيام المصورة، معربة نظما، المكتبة الشرقية، د.ت.

13- وستيورت إم كيلي، توجيه الاسئلة الصحيحة دليل التفكير الناقد،إم نيل براون، ت:مكتبة جرير، المملكة العربية السعودية،2014م.

الرسائل الجامعية

1- ابتسام صغيور، دور الروابط واثرها في الانسجام النصي (دراسة تطبيقية) في سورة الاعراف، جامعة المسيلة، الجزائر.

2- زينب نمر، الروابط الحجاجية في ديوان أمل دنقل(رسالة ماجستير)، جامعة العربي بن مهيدي، كلية الآداب واللغات، الجزائر.

3- فهيمة سنوسي، صباح حيدب، المغالطة الحجاجية في الخطاب الاشهاري،الاشهار السمعي البصري نموذجا (ماجستير)، جامعة اكلية محند اولحاج، كلية الآداب،الجزائر، 2018.

المجلات العلمية

1- عدلي الهواري، معرفة الذات، مجلة عود الند، مجلة ثقافية فصلية،2013.

2- محمد سالم محمد الامين، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، مج/28،ع/3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2000.

3- نبيلة بوقرة، استراتيجية المغالطات في حوارات الاذكياء (نماذج من كتاب الاذكياء لابن الجوزي) مجلة سياقات اللغة الدراسات البينية، ع/5، افريل،2017.

المكتبة الالكترونية - اساليب الحجاج مقومات الحجاج اللغوي والبلاغي.

https://www.alloschool.com/assets/documents/course